الإتجاهات النقدية في القرن الرابع

تتفرع هذه المحاضرة إلى ثلاث محاضرات.

١_الصراع النقدي حول أبي تمام وإشكالية القديم والمحدث

..٢_ النقد العربي القديم والأثر اليوناني/قدامة بن جعفر أنموذجا.

..٣_المعركة النقدية حول المتنبي ..واستراتيجية الجمع بين القديم والمحدث.

شكل نقد القرن الرابع محطة حاسمة في بناء العقل النقدي ،إذ يتضح من خلال توجيه النظرية الشعرية بشكل خاص،فكيف بنى العقل النقدي منهجه وماهي أدواته الفلسفية والمعرفية والإيديولوجية التي اعتمدها لبناء نظرية شعرية مختلفة عن انتماءاتها وتصوراتها السلفية ؟إن الإشكالية التي أسست مفاهيم وتصورات النقد منذ القرن الثالث الهجري الذي مثلته المدرسة التوفيقية والتي تبنت التيار الحداثي مع كثير من التواطؤ مع النموذج الكلاسيكي كما أوضحنا في المحاضرات السابقة ..فرغم هذا التواطؤ الذي لاحظناه عند المبرد وابن المعتز والجاحظ وابن قتيبة ،يمكننا أن نعدها بدايات الإنعتاق(التحرر) من هيمنة النموذج الذي أسست له المدرسة الكلاسيكية خاصة مع ابن سلام الجمحي في منهج الطبقات ..يمكننا تلخيص المحطات الحاسمة في تاريخ النقد العربي القديم في القرن الرابع الهجري في ثلاث قضايا : ١_الصراع النقدي حول أبي تمام/إشكالية القديم والمحدث..٢_النقد في علاقته بالثقافة اليونانية/قدامة بن جعفر ..٣_معركة النقد التي دارت حول المتنبي ..لاحظنا أن أبا تمام شغل النصف الأول من القرن الرابع وقابله المتنبي في النصف الثاني ،ليظل تأثير الثقافة اليونانية واضحا على مدار القرن..وإن كنا لانغفل جهود إبن طباطبا في هذا السياق فلن نقف عنده بشكل خاص نظرا لكون عمله لاينتمي إلى دائرة الصراع التي توضح هذا الباب..

١_الصراع النقدي حول أبي تمام..

يشكل موضوع الصراع حول أبي تمام هاجسا فكريا شغل النقاد والمتذوقين في ق٣،ثم ورثه نقاد القرن ٤،اذ اتسعت حركة التأليف في الإنتصار له أو تبيان عيوبه ،فكان جهد نقاد القرن الثالث يميل إلى إبراز عيوبه التي تحددت في سرقته لبعض المعاني وفي تعسفه للإستعارة وبعض وجوه البديع الأخرى وفي استعماله الألفاظ الوحشية الغريبة وفي استغلاق بعض معانيه؛هي القضايا نفسها تقريبا التي توقف عندها نقاد القرن الرابع ..لعل الصراع في موضوع أبي تمام يقوم على مستويين أساسين :١_المستوى الأول :يرتبط بعملية التلقي وهي علاقة الشاعر بمن حوله من المتلقين والتي تتأثر حتما بالتحولات الشعرية من مرحلة إلى أخرى ومن عصر إلى آخر ،فكما أوردنا في محاضرات سابقة أن النص يحاكي زمانه وأن التاريخ مسؤول عن إنتاجية النصوص ..المستوى الثاني : يتعلق بمذاهب الشعراء ،ففي المراحل التقليدية للنقد العربي(النص في عصر ماقبل الإسلام ،الإسلامي والأموي بمدارسه الثلاثة ،إلى غاية العصر العباسي الأول والثاني)،لاحظنا انسجاما بين مذاهب الشعراء ومذاهب النقاد نظرا لوحدة الثقافة الأدبية والأعراف النقدية التي صنعت النظرية الشعرية (حتما تذكرون

اللقاءات بين أم جندب وعلقمة وامرئ القيس وبين النابغة والأعشى والخنساء ..ثم عودوا إلى بيئة الحجاز وأعراف إنتاجية النص فيها ..وإلى كتاب فحول الشعراء وقوانين تصنيف الشعراء وفق النموذج الشعري العرفي)..لعل جميعها (الأعراف الشعرية) تقوم على وضوح الدلالة وتجانس عناصر الصورة الشعرية وانسجامها وأعراف القبيلة وعاداتها ....الخ..

إن السؤال المنهجي الذي يشترط علينا أن نبدأ به في هذا المقام هو ،لماذا لم تنشأ الخصومة حول أبي نواس أو بشار بن برد أو مسلم بن الوليد رغم أن هؤلاء كانوا من المجددين ؟الخصومة بين أنصار القديم وأنصار الحديث لم تحتدم إذا إلا حول أبي تمام ،وهي الخصومة التي أثارت حركة النقد في القرن الرابع ..لعل التعصب القديم /النموذج الكلاسيكي من أهم أسباب الخصومة رغم تعدد التصورات في موضوعه..رأي الصولي:يعد رأي الصولي في (أخبار أبي تمام) والتي بناها على صعوبة شعر أبي تمام من بين الأمراء النقدية التي أسست النظرية الشعرية،إذ كان الأول في شرح ديوان الحماسة لأبي تمام ومن النقاد الذين فضلوا بين قضية الديني والشعري عند أبي تمام الذي أتهم بالإلحاد ،مما جعله من المؤسسين لاستقلال النظرة النقدية في تاريخ النقد القديم ،والتي نجدهاعند الصولي والجرجاني ..كما يعد من أنصار المحدثين إذ يتجلى ذلك في انتصاره لأبي تمام :(إن المتأخرين إنما يجرون بريح المتقدمين ويصيبون على قوالبهم ويستمدون بلبابهم وينتجعون كلامهم وكلما أخذ أحد منهم معنى إلا أجاده...الصولي ١٧)يتضح لنا من نص الصولي أن حقيقة الصراع بين مذهبين ،مذهب القدماء والمحدثين ..٢_قضية الصراع بين أبي تمام والبحتري ومنهج الموازنة عند الآمدي:يعد كتاب الموازنة للآمدي محطة حاسمة في تاريخ النقد العربي القديم لما اجتمع له من خصائص على حد تعبير إحسان عباس في تاريخ النقد الأدبي عند العرب ؛ذلك أنه ارتفع عن بساطة النقد القائم على المفاضلة وإصدار الأحكام الإنفعالية غير المعللة كما رأينا في دروس سابقة ،فقد جاء موازنة مؤيدة بالتفصيلات واستقصاء موضوع الدراسة من جميع أطرافه إذ يقول الآمدي :(وأنا أبتدئ بذكر مساوئ هذين الشاعرين لأختم محاسنهما ،وأذكر طرفا من سرقات أبي تمام وإحالاته وغلطه وساقط شعره ،ومساوئ البحتري في أخذ ما أخذه من أبي تمام وغير ذلك من غلطه في بعض معانيه ثم أوازن من شعرهما)..أعلن الآمدي منذ البداية اجتنابه التفضيل وأنه لن يطلق القول في أيهما أشعر مما يؤسس بموضوعية عمله ..يتضح نقد الآمدي من خلال موازنته بين البحتري الذي يمثل النموذج القديم وأبي تمام الذي يعد من الشعراء المحدثين المجددين ،المنحرف عن سلطة النموذج القديم (القصيدة العمودية)،فهو منحرف عن سلطة البلاغة والنظرية الشعرية القديمة ،مخالف لقوانينها ..إن القارئ لكتاب الموازنة يلاحظ مخاتلة الآمدي لمبدئه الذي أعلن عنه في البداية حين يتحدث عن البحتري إذ يقول :(البحتري أعرابي الشعر مطبوع وعلى مذهب الأوائل ومافارق عمود الشعر المعروف وكان يتجنب التعقيد ومستكره الألفاظ ووحشي الكلام ..ولأن أبا تمام شديد التكلف صاحب صنعة،شعره لايشبه شعر الأوائل ولا على طريقتهم ....فهو بأن يكون في حيز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه، وعلى أني لا أجد من أقرنه به لأنه ينحط

عن درجة مسلم، لسلامة شعر مسلم وحسن سبكه وصحة معانيه ،ويرتفع عن سائر من ذهب هذا المذهب وسلك هذا الأسلوب لكثرة محاسنه وبدائعه و اختراعاته....الموازنة ص٦)...يتضح لنا من هذا النص مجموعة من القضايا أهمها :١_البحتري مطبوع الشعر على مذهب الأوائل بمعنى أنه اتباعي منتمي لعمود الشعر ...٢_في مقابل ذلك يتموقع أبو تمام وهو شديد التكلف،صاحب صنعة ،شعره لايشبه شعر الأوائل،مخالف ،منحرف عنهم..٣_لم يجد الآمدي بمن يقرنه بمعاصريه مما يجعلنا نؤكد على أن أبا تمام صاحب مذهب جديد مختلف،يشكل مدرسة بمفرده ..يتضح مبدأ الصراع في الموازنة أساسا من إقامة الموازنة بين شاعرين مختلفين متباعدين في الطريقة والمنهج ؛ فواحد على منهج الأوائل والثاني منحرف شعريا ،خارج عن سلطة عمود الشعر وأعرافه البلاغية ..الأول منتمي لطريقة الأوائل وعمودهم والثاني ثائر عليه مفكك له،منتج لنموذج جديد في الإبداع وحاث على آليات جديدة في النظرية الشعرية ..نستنتج،أن أصل الصراع حول أبي تمام والبحتري كما ذكرنا في سياقات مختلفة مرجعه التعصب للقديم /النموذج ،خاصة إذا علمنا أن الآمدي نحوي على شاكلة ابن سلام الجمحي والمبرد يقتفون النموذج اللغوي والبلاغي الكلاسيكي ...ملاحظة :هذه المحاضرة الأولى في موضوعة النقد في القرن الرابع الهجري...

المعركة النقدية حول المتنبي واستراتيجية الجمع بين القديم والمحدث.

حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ركدت الخصومة حول أبي تمام أو تراجعت ،ولعله الذوق العام قد تغير بفعل الزمن وتأقلم العقل العربي مع المستحدث في الثقافة العربية،أو لعلها المؤسسة الثقافية استطاعت أن تجد لنفسها انسجاما مع الجديد المعرفي فبدأت تقلل من انتمائها المفرط للنموذج الذي هيمن على العقل النقدي والثقافي طيلة قرون من الزمن ليتجه نحو عقل منهجي يأخذ بعين الإعتبار المنتج الراهن وهيمنته ..يعد ظهور المتنبي ظاهرة جديدة،شكلت هاجسا وحيرة معرفية في ظل هيمنة النموذج واستغراق الفكر في إشكالية القديم والمحدث..المتنبي شاعر جمع بين القديم والجديد بقوة (على خير ماكان يجيئ به القدماء،ضمن شعره فلسفة وثقافة القرن الرابع فالنقاد مع المتنبي أمام طريقة جديدة قديمة لاينفع فيها ماعتمدوه من مقاييس عمود الشعر،تصرف في اللغة تصرف المالك المستبد فنشبت المعركة بين الأنصار والخصوم ..إحسان عباس ص ٢٤٥)..يعد موقف الخصوم في معظمه شخصيا ،جاء نتيجة شخص المتنبي المتعاظم والمتعالي فأرادو تحطيم شعره انتقاما،فركزوا على سرقاته كمازعموا أن شعره مرقعة مصنوعة من معاني الآخرين ..تمثلت الدراسات حول المتنبي في مجموعة من الأراء تمثلت في رسائل ساخنة أضافت إلى مفاهيم النقد الكثير ..١_

رسالة محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمي/بين تقرير القواعد ووضع الأصول :

..تميز نقد الحاتمي بكثرة الحفظ وتوفر الشواهد..تسمى رسالته في تعقب سقطات المتنبي بالرسالة الموضحة،تمثلها في ذكر سرقات المتنبي وساقط شعره كما ذكر، وهي أول رسالة في نقد شعر أبي الطيب،صرح فيها أن الوزير المهلبي هو من حرضه على مهاجمة المتنبي(وكلني بتتبع عواره وتصفح أشعاره ..الموضحة ص٣)..فلم

تكن خالصة لوجه النقد،اجتمعت فيها انتقامه، فقد أهمله المتنبي حين زاره في بيته من المتنبي وإرضاء صاحب الدولة .تصف الرسالة أربعة مجالس،تجتمع فيها ظاهرة الكشف عن السرقات،ثم وضع القواعد النقدية وشرحها،كما وضع الحاتمي حد الشعر والمتمثل في اللفظ والمعنى والوزن والقافية .يقر الحاتمي لأبي الطيب بحسن الصياغة والمعاني (لكنه يشفع ذلك بأبيات يسرق معانيها فتأتي القصيدة على غير شاكلة ولا اتساق ولا اقتران..الموضحة ص ٢٢/٢١)..فقد اشتغل على موضوع سرقة المعانيوالخطأ فيها،كما ركز على عيوب المبنى الشعري والاستعارة ..تشكل الرسالة مدخلا مهما للدرس النقدي البلاغي وتقريرها لقواعد الشعر وأصوله ،رغم اتسامها بالإنفعال وعدم موضوعية صاحبها في كثير من الأحيان..

٢_رسالة أبو العباس النامي/الكشف عن أخطاء المتنبي ..ركز أبو العباس على مسألة الكشف عن أخطاء شعر المتنبي ،تعمد السرقة وسوء اللفظ والغموض في التعبير. تشكل هذه العناصر إضافات للدرس النقدي البلاغي وتأسيس بلاغي لحركة النقد في ق٤..

٣_المتنبي والصاحب بن عباد/الكشف عن مساوئ المتنبي..عاب عليه استعمال الألفاظ الحوشية ..الإبهام على طريقة الصوفية .رداءة المطالع .هجنة الإستعارة .رداءة التشبيه .ركوب القوافي الصعبة ..رغم موضوعية هذه العناصر كما يبدو ،إلا أن الصاحب استعمل السباب الجارح والتعليق الساخر ..تبدو لنا العناصر السابقة منخرطة في الدرس البلاغي والعروضي أكثر من انسجامها والدرس النقدي ،مما يجعلنا نستنتج أن التلقي العربي في هاته الفترة كان تلقيا بلاغيا بامتياز.. ٤_شرح ابن جني ومسألة الردود .يقول ابن جني في الأراء حول المتنبي (ومالهذا الرجل الفاضل من عيب عند هؤلاء السقطة الجهال وذوي النذالة إلا أنه متأخر محدث...ابن جني الشرح،ج١..الورقة ١). رغم تسجيله لملاحظتين حول شعر صاحبه ..١_التعسف في بعض الألفاظ ،إذ جاء بالشاذ وحمل على النادر ..٢_العمق في معانيه مما يتطلب إعمال الفكر وطول البحث وتكرار التأمل فهو شاعر يخترع المعاني ويستوقفها،فقد كان عارفا بما يصنع تماما كأبي تمام ..يتضح لنا مما سبق أن النقد العربي القديم قد تحول في هذا العصر من فوضى الذوق والأحكام إلى بناء المنهج من خلال بنية الصراع بين القديم والمحدث التي كانت هاجسا أيديولوجيا عند النقاد والشعراء ..